الهروب إلى نانجيالا(*): كيف أنقذني الخيالُ في زمنِ الحرب

أليس يوسف

(*) مقطع من سيرة شخصيّة: تتناول هذه السيرة الشخصيّة مقطعاً صغيراً من حياتي في القدس ـ فلسطين في بداية أشهر الانتفاضة الفلسطينيّة الثانية (انتفاضة الأقصى 2000 ـ 2004)، أستقي هذه السيرة الذاتيّة من يوميّاتي كطفلة في أوجّ فترة الحرب، شهر آذار/مارس من العام 2001.)

في نانجيالا(**)، ليس هناك وقت

أمّا في غرفتي، فالساعة الثانية عشرة وسبع دقائق. ما بين عودة فيلاياس فوغ للندن واكتسابه الرّهان غفوتُ. غفوتُ قبل ساعة وأنا أحلم بالمدرسة وبلندن وبمزيدٍ من الكُتب. غفوتُ وعلى طاولتي هنالك دفتر وقلم حبر تعلّمتُ الأسبوع الماضي كيف استبدل الرصاص به ورزمة من الكُتب تضيء أغلفتها لمبة صغيرة مربّعة للقراءة. غفوتُ والمدينة يلفّها الهدوء وبقايا مطر الأمس.

بعد أعوام من هذه اللّيلة سيبقى في ذاكرتي ضوءُ أزرق يتراقص على الخزانة البيضاء التي تقع قبالة غرفتي وتطلّ على الشارع العامّ. بعد أعوام سيبقى في ذاكرتي صوتُ أزيز عالٍ كأنّ إمعاء الشارع العامّ تتمزّق ألماً طول اللّيل. بعد أعوام سيبقى صوتُ أمّي التي ترفض أن تطيع يعلو في أذني.

في نانجيالا، شجر كرز ولوز...

في الباحة المُقابلة لمنزلي شجرة لوز نُحبّها كثيراً أنا وإخوتي وأولاد الجيران الأربعة، في

(**) نانجيالا: بلدة متخيَّلة في كِتاب «الأخوان» لأستيرد ليندجرين، تعيش هذه البلدة وفق زمن المُغامَرة والأسطورة وتمتاز بشجر الكرز واللّوز والهدوء.

تلك الأرض الكبيرة أيضاً أربع أشجار زيتون وعشب كثيف وهضبة إسمنتيّة صغيرة وخشب لبيت الشجرة. ومساء هذه اللّيلة ثلاث دبابات بجنازير كبيرة تجرّها فتترك أثراً و«جيب»عسكري. في بيتي أهلي والجيران وأولاد الجيران الأربعة وجنديّان بطلاءٍ أسود على وجوههم.

في نانجيالا، كاتالا التنّين العنيف ينفث ناراً ويشلّ ما يمشي في طريقه.

وفي باحة المنزل تُحرِّك الدبّابةُ مدفعيّتها لليمين ولليسار، وفي كلّ حركة بعيدة عن زجاج المنزل نسمع زفيرنا كلّنا مرّة واحدة. لا مكان آخر نذهب إليه الساعة الثانية بعد منتصف اللّيل. في بطن البيت نتكوّر على ذواتنا تحت بطّانيّةٍ واحدة أغلبنا يهمس وبعضنا يُصلّي والباقي يرتجف... الحرب أرخت أوزارها وشلّتنا جميعاً بنارها.

كلّما فكّرتُ بعمقٍ في ما تعلّمته خلال الصفّ السادس خرجتُ بدرسٍ واحدٍ فقط: هنالك أشكالٌ عدّة للخوف، وشكلٌ واحدٌ للشجاعة. الشجاعة ليست اندفاعاً، وليست عُنفاً وهي حتماً ليست أن تقف من دون أن ترجف رجلاك مع أنّه طبعاً من المستحبّ ألّا ترتجِف: إنّما الشجاعة شيئان فقط، أن تتعلّم كيف تستعمل عقلك وأن تهرب. نعم أن تهرب!

بعد أسبوع من استيقاظي في منتصف اللّيل و«صبحيّة» الشاي غير المتوقّعة مع الجيران، تمكّنتُ من العودة إلى المدرسة لبعض الأيّام وهنالك تعلّمت أوّلَ طريقة للهرب. الشوارع في المدينة لا تشبه ذاتها، كلّها اكتسبت ندباً جديدة وبعضها مبقور البطن ينزّ ماءً وأخرى لمع بنحاس الرصاص المفرَغ وغيرها ما زالت الدبّابات تحرسه. في ساحة المدرسة، كلٌّ منّا يتحدّث عن بيته وكأنّ العالَم الواسع ضاق كثيراً جدّاً ليحمل بيتُ كلٍّ منّا عالماً: فتارة عالَم بزجاج اخترقه رصاص وتارة عالَم آخر مُنزَوٍ لم يطلْ غير أزيز الطائرات وصوت قصفها وآخر تبعثرَ فيه السكّر والزيت والأرز الجافّ في خلطةٍ لم تكُن على بال أيّ واحد. طالبات الصفّ السادس وغيرهنّ ممَّن اختلفت عليهنّ الحياة قد بدا واضحاً أيضاً أنّهنّ وأنا منهنّ اعتدنا على الأصوات العالية الآمرة «بيتك بيتك» مثلاً، أو «ممنوع التجوّل حتّى إشعار آخر». فلم نجفل حين جاء الصوت واضحاً: «يا بنات وَقْفوا بالصفّ وبلا حديث جانبي». معلِّمة الرياضة الجديدة صرخت فينا وكأنّنا بلا سمع. وعندما ضَبَطَتِ الصفَّ أدارت ظهرها للحضور وأشارت للجرس: حين يقرع هذا الجرس ولا يتوقّف أريد

مِن كلِّ منكنّ أن تعمل ما يلي. أشارت إلى الأرض وفجأة اختفت. تحلّقنا حولها بأعْيُنٍ واسعة، فقد كانت «المِسّ»(*) على الأرض كسمكة خرجت مِن الماء تُحرّك يدَيْها للأمام ثمّ تدفع برجلَيْها لتجعلَ جسمَها يسير للأمام زحفاً على الأرض كأفعى. ضحكة خافتة أطلقتها روان والتي جعلت «المِسّ» تقفز على قدمَيْها وتصيح بروان: «ما بمزح، اليوم بدّنا نتعلّم وضعيّة النزول إلى الملجأ، لأنّه بدنا نحمي حالنا... مِيّة جبان ولا الله يرحمني».

في التدريب التفاعليّ للهرب لم أفكِّر، أطعتُ فوراً، ولكنْ عندما وصلنا إلى الملجأ المدرسيّ لم أتمالك نفسي. كنتُ قد أعددتُ ذاتي لرحلةٍ مُثيرةٍ كأبطالِ كونان دويل، حتماً إنّ الركض على الدرج متبوعٌ بهذا الزحف كلِّه تجاه باطن المدرسة سيفضي إلى دينصوراتٍ أو على الأقلّ إلى بركانٍ أو نباتاتٍ غريبة خارقة أو زهور أو شيء ما وراء البيانو الكبير غير الغبَرة ويا لخيبة الأمل عندما وجدتُ نفسي في قاعة الرياضة التي حَملت في زاويتها قاروراتِ مياهٍ ومعلَّباتٍ وعدداً من الفرْشات الرياضيّة الزائدة!

إلّا أنّ العودة إلى المدرسة ولو لبعض أيّام أعادت لي الإحساس بالحياة الطبيعيّة. لم تُخبرْني أمّي أو أيّ من معلِّماتي أنّه في الصفّ السّادس تحدث كلّ التغييرت المُلهِمة لفتاةٍ نحيلة في الحادية عشرة من عمرها! ففي هذه السنة الدراسيّة المحظوظة تتّسع المساحة للحديث عن الجسد الذي يتغيّر وتكبر دفاتر الواجبات وتتعقّد الكلمات التي نستطيع بها أن نُعبِّر عن كلّ شيء والتي بدورها تهرب حين نحتاج إليها في الظلام. كانت هذه اللّحظات العابرة مُتنفَّساً لي وللأخريات كما كانت محطّةَ أمانٍ وسعادةٍ لأمّي حين ترى أنّني ما زلتُ فتاةً طبيعيّة ولم أتحوّل إلى «حسن صبي» بشعري القصير وإصراري على تعلُّم الفتبول و«تعربش السور» مع أولاد الحارة حين كان يخفّ دَويُّ المَدافع. لم تكُن أمّي بحاجة إلى القلق ولكنّي لا ألومها، فماذا يحدث عندما يتغيّر عالمك كلّه بلحظة؟ وماذا يحدث للطفولة وكيف نذكرها؟

الذاكرة خوّانة فهي تميل بنا عادةً تجاه مكيال الفرح، ولربّما هنا نقف مُمتنّين قليلاً، وبخاصّة ممّن كبر، للنسيان اللّحظيّ. ففي النسيان اللّحظيّ هروبٌ ثانٍ، وبالتالي، شجاعة. أن تنسى للحظة أنّكَ طفل تعيش بحربٍ معناه أن تتعلّم كيف تقود درّاجة هوائيّة

(*) «مِسّ»: مُعلِّمتي، تُستعمَل عادةً في فلسطين كترجمةٍ حَرفيّة للمُصطلح الإنكليزيّ «آنسة» في إشارةٍ إلى المعلِّمة.

في مساحة الكراج المُخصَّص لسيّارة «فيات» لا تسع سوى أربعةِ ركّاب. أن تنسى للحظةٍ معناه أيضاً أن تضبطَ مَن يغشّ من إخوتك الصغار في لعبة «المونوبولي» والتلفاز يُعيد تدوير أخبار الأمس ويزيد عليها أرقاماً لا شأن لك فيها. أنْ تنسى معناه أن تتعلَّم السباحة وتأخذ أبعد الطرق إلى المسبح لتتفادى صيد القنّاص. أن تنسى لثانيةٍ أنّ عالمكَ ينهار معناه أن تأخذ الألوان المائيّة كلّها وتلوِّن بها جميع وجوه السياسيّين والجنود في الجريدة ثمّ تتذكَّر فتلفّ الجرائد بالكيس الأسود وتلقي بها في أقرب حاوية. أن تنسي كفتاة أنّ الحرب تأخذ أطفال الآخرين معناه أن تُغطّي لعبتك ببطانيّة أخرى خوفاً عليها من برد اللّيل وتضمّيها إلى صدركِ حين تئنّ الطائرات في السماء.

ولكنّي ظلٌّ مختلف في تعريفات الخوف وأساليب الهرب. كنتُ أنا قد اخترتُ الطريق الأبعد، الأكثر أماناً. لربّما لم اخترْ هذا الهرب عن وعي ولكنّه لازمني وغيَّر كلّ حياتي بل يُمكِنني أن أقول إنّه أنقذني. عندما كانت القذائف تهبط فوق مدينتي وعندما كنتُ أسمع وأرى الطائرات تحلِّق فوق بيتي الصغير كنتُ اختبِئ تحت بطانيّتي وأتظاهر أنّي لا اسمعها وأقرأ. أنا هربتُ من لندن إلى نانجيالا وثمّ إلى بلد العجائب، وإلى عُمق البحار. جلتُ مع جول فيرن وكونان دويل وهيرمن ميلفل ولويس كارول وشارلوت وإيملي برونتي أينما قرّروا أن يرحلوا بي. في العالَم المُوازي كانت نجدتي: ففي لندن ومع فيلايس فوغ كسبتُ الرهان ضدّ الزمن، وكأليس لحقتُ بالأرانب التي رَسَمَتْها أصابعي في ظلّ المصباح على الحائط لأهدِّئ من روع أخواتي في العتمة. وفي خضمّ الخوف من الطغاة ولشدّة هَوَسي بكتبِ استريد لدنجرين ضعتُ في ثورة وادي الكرز ضدّ تنّين نانجيالا وضدّ الموت الذي شبعتُ منه في الأخبار والصحف. كانت الكُتبُ طوقَ نجاةٍ لأنّي حين أغمض عينيّ أنتقل فوراً إلى عالَم يختلف تماماً عن العتمة والخوف والظلمة: كان عالَماً من نور وزهور وأبطال وبطلات. أسعفتني البطولة الأنثى، لأنّي وكهاربة، لم أعتقد يوماً أنّني أملك ذرّةً واحدةً من الشجاعة التي كانت من نصيب الأخريات وتجاوزَتني. كنتُ أعي قَدَري، أنا كانت لي الكلمات وللأخريات الفعل. وفي ظلّ الفوضى كان للكلمة الأثر الأكبر والحظّ الأوفر، فالذاكرة المُتناسِية تُسعفني في المرّات التي ضَبَطَتْني أمّي وأنا ألتصق بلمبتي الصغيرة أُخبِّئ كتاباً ليساعدني على تجاوُز الأرق الذي سبّبه لي دويُّ الرصاص، أرى أمّي تهزّ رأسها: «رح تخربي عينيكي بالقراءة على النوّاسة!.» الهرب للخيال تَرَكَ مساحةً

صحيّة في الواقع، ففي باطن الأرض أو حفرة أليس وغيرها لا تُطبَّق القواعد الخاصّة بالعالَم الحقيقيّ: أشياء تطير والحيوانات تتحدّث والأجساد تكبر وتصغر. بينما في البيت، الأجساد تكبر والقلوب تصغر والأصوات تعلو واللّيل موحشٌ؛ في العالم الخياليّ يسود الهدوء وتتدرّج الألوان. في العالَم المُتخيَّل يُمكِننا أن نكون ما نريد مِن دون أن يضبط أحدٌ دوافعَنا أو أن تلوِّث أحذيةُ الجند أحلامَنا. ولربّما هنا كَمَنَ سرُّ الشجاعة: إنّني في هذا العالَم، ولو لِلَحظاتٍ، استطعتُ أن أكون كما أريد: بشعر طويل أو قصير، بروح مغامرة أو خجولة، بزمن يشبه ذاك الذي على ساعتي التي تتقدّم ساعتَين عن غرينيتش. كنتُ أنا كما تخيّلتُ ذاتي: آمنة لأنّي أنا حرّة.

الساعة الآن السادسة بتوقيت القدس.

في نانجيالا، ليس هناك وقت.

في نانجيالا تركتُ نسخةً مِنّي، فتاة تبحث عن ذاتها تحت شجرة لوزٍ.

أبحث عنّي.